جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 11 ، العدد 2
صفر 1346 هـ / ديسمبر 2014 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

غرب الأندلس أو البرتغال الإسلامية ومدينة ميرتلة في المصادر العربية

حسام الدين بن صالح شاشية

كلية الآداب والفنون والإنسانيات - جامعة منوبة

منوبة - تونس

تاريخ الاستلام 2012-09-10 **تاريخ القبول 2013-09-25**

ملخص البحث

تحاول هذه المقالة النظر في حضور غرب الأندلس و مدينة ميرتلة في المصادر العربية، من حيثُ طبيعة الأخبار، و مناهج الإخباريين، في محاولة رصد تطور هذا الحضور وفهمه.

كلمات مفاتيح: مصادر إخبارية، غرب الأندلس، التاريخ الإسلامي للبرتغال، ميرتلة

المُقدمة:

لئن يعتمد علم الآثار بالأساس في أبحاثه على الأدوات والبقايا الأثرية التي يتم العثور عليها في مواقع البحث، فإن علم التاريخ يقوم خصوصًا على المصادر التاريخية، ولأن علم الآثار وعلم التاريخ يتكاملان فإن البحث القائم على هذين العلمين سيكون ذا فائدة أكبر ونتائج أعمق.

هذا الطموح في المراوحة بين هذين العلمين كثيرًا ما يصطدم بعوائق مختلفة، لعل أهمها منهجية العمل التي يتبعُها الباحث، فعالم الآثار لا يجعل من المصادر التاريخية إلا مُكملاً و مُؤطرًا لأبحاثه الأثرية، في حين أن المؤرخ كثيرًا ما يجعل من البقايا الأثرية مُجرد شواهد و مُدعمًا لنتائجه البحثية المصدرية.

ففي جانب علم الآثار ومن خلال زيارتنا لعديد المواقع في البرتغال، ومن خلال مُحاورتنا لعدد من أهم المختصين في الآثار الإسلامية ككلوديو توراس وسانتيغو ماثياس وبعض المُشرفين على هذه العملية، فإن البقايا الأثرية تبدو مهمة، وهي تزداد ثراءً يومًا بعد يوم بحملات البحث المُختلفة. والسياسة المُتبعة في البرتغال في هذا المجال، سياسة تقوم على اعتبار التراث مصدر ثراء وطني، ولعل الدليل على ذلك هو وجود عالم آثار في كل بلدية مهما كان صغرُها يسهر على المُحافظة على التراث وعمليات البحث بجهته

كذلك ومن خلال إطلاعنا على عدد مهم من الدراسات والمراجع حول تاريخ البُرتغال الإسلامية، وخاصةً ميرتلة نُلاحظُ الاعتماد المُكثف على المصادر الأثرية (Almeida, 1976; Barcelo, 1987; Candon, 2001; Fernandez Gomez, 1987) و هو ما يُفسرهُ سانتيغو ماثياس ((Macias, 2005 وعدد من الباحثين الآخرين بعدم اهتمام المصادر التاريخية العربية بجهة غرب الأندلس.

إذا كان هذا الأخير كغالبية الباحثين قد توصل إلى استنتاجه هذا من خلال إطلاعه على المصادر التاريخية المُترجمة خصوصًا إلى الفرنسية والإسبانية، فإن إطلاعنا المُباشر على عدد مهم من المصادر العربية، دفعنا لوضع هذا الرأي موضع بحث، في ظل نُدرة الدراسات والمراجع العربية حول البرتغال الإسلامية عمومًا، وخصوصًا تلك التي تدرُس طبيعة المصادر المُهتمة بالأندلس. ثم هل إن القول بأن المصادر العربية لم تهتم بجهة غرب الأندلس يعني أنها اهتمت أكثر بجهات أُخَر؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يجبُ أولاً فهم طبيعة المصادر العربية والمنهجية العامة لإخباريّ ذلك العصر، وهي مصادر يمكن تقسيمها عمومًا إلى ثلاثة أنواع:

- مصادر إخبارية كرونولوجية.
- كتُب التراجم.
- مصادر جُغرافية.

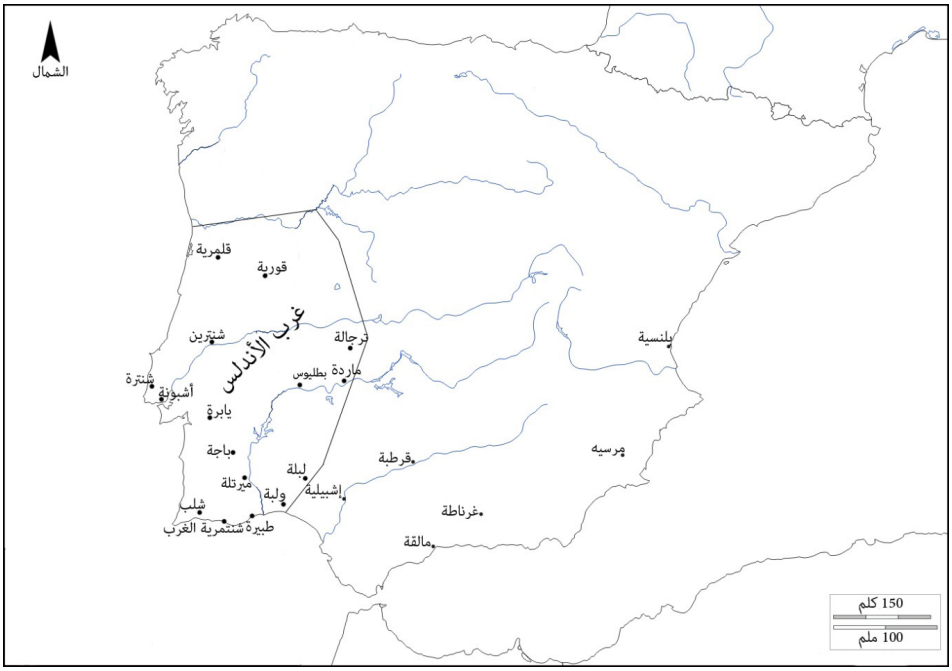

1. خريطة غرب الأندلس وبعض الحواضر الأندلسية

I. تقديم المصادر الخاصة بغرب الأندلس:

1- المصادر الإخبارية الكرونولوجية:

لا تختلف المصادر الإخبارية حول تاريخ الأندلس تقريبًا عن بقية المصادر العربية التي كُتبت في ذلك العصر أو حتى قبلهُ، فهي تعتمد منهجية الإخبار القائم على التاريخ الكرونولجي، أي عمومًا تتبعُ الأحداث سنةً بسنة، ولنا هنا العديد من الأمثلة لعل أهمها كتاب ابن عذاري (1983): البيان المُغرب في أخبار الأندلس و المغرب، أو كتاب عبد الواحد المراكشي (1994): المُعجب في تلخيص أخبار المغرب وغيرهما، حيثُ اطَّلَعْنا في إطار إعداد هذا البحث على ما يُقارب عشر مصادر من هذا النوع، كُلها تقريبًا لا تهتم بالإطار الجُغرافي أو المكاني بقدر اهتمامها بالحدث نفسه.

من هُنا يمكن القول أن بوصلة الإخباري مُعدلة على الخبر وليس على المكان، كما أن الأخبار في الغالب تكون مُتعلقة بالجانب السياسي، وهو ما يُؤدي منطقيًا إلى كثافة المادة

الإخبارية حول المراكز السياسية بالأندلس كغرناطة، وقرطبة، وطليطلة وإشبيلية وغيرها، في حين نُلاحظ قلتها أو ندرتها حول «الأطراف»، أين تغيب المراكز السياسية أي شرق وغرب الأندلس.

لا تحضر هذه الأطراف في بداية الحضور الإسلامي إلا في إطار عملية الفتح أو التوطين كما هو الشأن بالنسبة لباجة (Beja) وشنترين(Santarem) عند ابن عذاري (1983)، أو في إطار قمع الثورات المُختلفة التي قامت بهذه الجهات، في هذا الإطار يقول المراكشي (1994: ص179): «وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورؤوس ضلالات، فاستفزوا عقُول الجُهال واستمالوا قلوب العامة...»، أو حديث ابن الخطيب (1956) في كتابه أعمال الأعمال عن ثورة عبد الرحيم بن مروان الجُليقي ببطليوس (Badajoz) في عهد الأمير عبد الله بن أُمية (276-300ه/889-912م)، وثورة ابن علي توطيدة كذلك ببطليوس سنة 548هـ/1148م عند البيذق(1971)، أو ثورة العلاء بن مغيث الجذق بباجة سنة 146هـ/763م. وثورة عبد الغفار اليمني في مدينة إشبيلية والغرب(Algarve) في عهد عبد الرحمن الداخل، سنة 144هـ/762م عند ابن عذاري(1983)، بالإضافة إلى الثورات التي قامت بميرتلة(Mértola) والتي سنرجئ الحديث عنها إلى القسم الذي سنخصصهُ للمصادر الخاصة بها.

كما ذكرنا سابقًا؛ ولأن بوصلة الإخباري مُعدلة على الخبر السياسي، فإنهُ ومع بداية عصر مُلوك الطوائف الأوَل سنة 422هـ/1031م سيزداد حُضُور الأطراف في المصادر العربية، نظرًا لعملية التشتت الشديد التي عرفتها السُلطة، وظهور مراكز سياسية مُستقلة في الأطراف.

إذا اعتبرنا عصر ملوك الطوائف عصرًا ذهبيًا على المستوى الثقافي والمعماري، فإنهُ كذلك يُعتبر العصر الذهبي للأطراف في المصادر العربية، فها نحن نجدُ ذكرًا لبابرة(Evora) وشنترين وأشبونة(Lisboa) مع ذكر دولة بني الأفطس (413-488هـ/1022-1094م) في «مُعجب» المراكشي. وحتى شنبُوس(Sapos) القرية الصغيرة من أعمال شلب(Silves) تجدُ لنفسها مكانًا في هذه المصادر مع ذكر دولة المُعتمد(461-484هـ/1069–1091م) وابن عمار، أو ذكر شنتمرية الغرب(Faro) مع دولة المُعتصم مُحمد بن سعيد بن هارون(433-443هـ/1041-1051م)، أو في إطار الحديث عن دولة المُعتضد بالله عباد بن مُحمد بن عباد، يقول ابن الخطيب (1956: ص155): «تولى الأمر بعد أبيه مُنسلخ جمادى الأولى سنة 433هـ/1042م، واستولى على غرب الأندلس كشلب ولبلة، وجبل العيون وما إلى ذلك».

إذا كانت جهات الغرب الأندلسي تجدُ لنفسها حظاً وافرًا في المصادر الإخبارية مع عصر ملوك الطوائف للأسباب التي ذكرناها سابقًا، فإن حضورها سيضمُر مع دولة المُرابطين في الأندلس(482- 538هـ/1090-1144م)، وإعادة مركزة السلطة ولو بصفة نسبية وكذلك رُبما لقصر دولة هؤلاء في الأندلس.

من هنا فنحن لا نجدُ حضورًا لجهة غرب الأندلس إلا بصفة نادرة، وفي إطار الحديث عن بداية هذه الدولة وإزاحتها لملوك الطوائف، كما هو الشأن عند ابن الخطيب في حديثه عن إزاحة المُرابطين لآخر أُمراء بني الأفطس المتوكل على الله (464-488هـ/1072-1094م)، أو في إطار صراع هؤلاء مع النصارى، كالحديث عن تصدي تاشفين بن علي بن يوسف لإحدى «غارات الروم...على ناحية بطليوس وباجة ويابرة...»(ابن عذاري، 1983: ج4، ص88).

هذا الموضوع أي الصراع بين المُسلمين والمسيحيين، وعمليات الغزو والغزو المضاد سيكون من أهم المواضيع التي ستُذكر في إطارها جهات غرب الأندلس في الفترة الموحدية(550-608هـ/1156-1212 م)، فلعل احتدام الصراع بين أمراء الموحدين ومملكة البرتغال الناشئة حول هذه الجهة التي يمكن اِعتبارها من آخِر معاقل المُسلمين بالأندلس، وعملية «الانزياح» التي عرفها المركز السياسي نحو هذه الجهة، أي: إشبيلية، كان سببًا رئيساً للحضور المُكثف للغرب أو «لمغرب الأندلس» على حد عبارة المراكشي في كتابات الإخباريين. لنا في هذا المجال العديد من الأمثلة، لعلنا نذكرُ منها: كتاب عبد الملك ابن صاحب الصلاة (1987) المن بالإمامة، والذي أرخ فيه للصراع المرير بين الموحدين وملك البرتغال ابن الرنك (Afonso Henriques)، وفصّل فيه لحملة أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الشهيرة على شنترين سنة 580هـ/1184م، أو ذكر ابن عذاري (1983: صص144، 206، 210) حملة الموحدين على يابرة سنة 576هـ/1181م، أو حملة المنصور على قلمرية(Coimbra) سنة 586هـ/1190م، ومن بعدها شلب سنة 587هـ/1191م، يقول: «تأهب المنصور لحركة شلب وعزم على غزو بلاد الغرب».إذا كان الإخباريون قد أَرَّخوا لانتصارات المُسلمين و»فتوحاتهم» فقد أرخوا كذلك لهزائم هؤلاء وسقوط مُدن الغرب الأندلسي الواحدة تلو الأخرى، ولعل أوضح مثال هو ما يذكرهُ ابن الخطيب (1956: ص293) فبعد الحديث عن سقوط مُدن أندلسية من مختلف الجهات يقول:»...ثم بطليوس و بلنسية، وميورقة، و شنترين و أشبونة، طبيرة، لبلة، جبل العيون، و كورة باجة، ثم في مُدة بعدها على أبذة، وبياسة ويابرة...». أو حديث ابن صاحب الصلاة (1987: ص289) عن «غدر النصارى من أهل شنترين لمدينة باجة ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الموافقة أول ليلة دجنبر[ديسمبر] من عام سبعة و خمسين و خمسمائة(557هـ/1162م) «، أو ذكره لسقوط يابرة سنة 1178م.

من كُل ما سبق، وفي مُحاولتنا فهم طبيعة المصادر الإخبارية الكرونولوجية ومنهجيتها، ومدى اهتمامها بجهة الغرب الأندلسي، المواضيع التي تطرقت إليها وكثافة اهتمامها بهذه الجهة على مرّ الحضور الإسلامي بالأندلس، يمكن القول أن الأخبار التي تهم غرب الأندلس لا تختلفُ كثيرًا عن الأخبار الواردة حول بقية المناطق الأندلسية، وهي أخبار مُتعلقة بـ:

- الفتح و التوطين.

- الثورات وقمعها.

- المُرابطون وإزاحتهم لملوك الطوائف.

- غزوات الموحدين وصراعهم مع «مملكة البرتغال».

- سقوط مُدن الغرب.

أما بالنسبة لكثافة المعلومات الواردة حول جهة الغرب الأندلسي، أي: البُرتغال حاليًا، فيمكن أن نُلاحظ تفاوتًا في الأخبار من عصر إلى آخر مُرتبطًا بالأساس، وكما لاحظنا سابقًا بالأحداث السياسية، وهو الأمر الذي يُمكن أن نُلاحظهُ من خلال عملية الإحصاء التي قُمنا بها للمادة المُتعلقة بالغرب في كتاب «البيان المُغرب» لابن عذاري، وقد كان اختيارنا لهذا المصدر كمحور لهذه العملية على أساس أنهُ من أهم المصادر الإخبارية وأشملها:

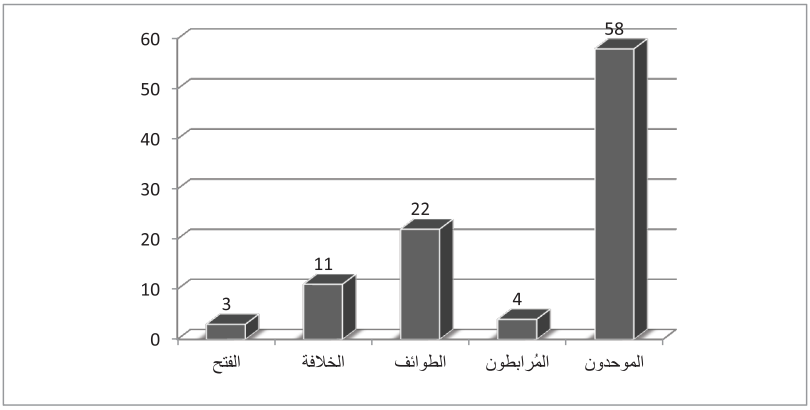

2. المادة المُتعلقة بغرب الأندلس في كتاب «البيان المُغرب» لإبن عذاري

2- كتُب التراجم:

تُعتبر نوعية الكتابة القائمة على منهجية التراجم من المناهج التقليدي في التدوين العربي، فكتُب التراجم وإن كانت قائمة بالأساس على التعريف بالسيرة الذاتية لمجموعة من الأشخاص الذين اشتهروا على المستوى السياسي أو الأدبي...، فإنها لا تخلوا في ثنايا هذه التعريفات من عديد المعلومات المهمة التي تخُص الحياة الاجتماعية أو السياسية والاقتصادية لعصر المُترجم لهُ.

هذا الأمر أمكننا الوقوف عليه من خلال اطِّلاعنا على نحو عشر مصادر من هذا النوع، ففي الكثير من الأحيان لا تكاد تحضُر جهة من جهات الغرب، إلا في إطار الترجمة لشخصية مُعينة، كقرية «قسطلة»(Cacella) مع أبي عمر بن درج القسطلي(ابن الأبار، 1985)، أو قرية «شنبُوس»، التي لا تكاد تحضر في المصادر إلا مع ترجمة وزير المُعتمد ابن عمار(ابن بسام، 1997).

بالنسبة لمنهجية كُتاب هذا النوع وعنايتهم بجهة على حساب الأخرى، فإنهُ يمكن القول إن اهتمام هؤلاء عُمومًا مُرتبط بالإطار الزمني، أي الترجمة حسب الفترة الزمنية، فمثلاً ابن سعيد الأندلسي ترجم في كتابه لشعراء القرن السابع هجري، وهو الأمر الذي نجدهُ كذلك في كتابات ابن الأبار(1919)، وابن خاقان(دت)، أو ابن بشكوال (1989).

يمكن القول أن الاستثناء الوحيد في كُتب التراجم التي اطَّلعنا عليها هو ابن بسام الشنتريني الذي إتَّبَع منهجًا قائمًا على الإطار المكاني في كتابه: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، و الذي قسمهُ إلى أربعة أقسام: خصص منها القسم الثاني كما يقول: «لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذكر أهل حضرة إشبيلية وما أتصل بها من بلاد ساحل البحر المُحيط الرومي».

أما عن مدى اهتمام كُتب التراجم بجهة الغرب، فالأمر مُرتبط أساساً بعدد الشخصيات المهمة التي ظهرت في الجهة، ولأن الأدباء والشعراء كثيرًا ما يقصدون مجالس الأمراء والملوك أي الحواضر السياسية، فإن ذكر هذه الأخيرة هو الذي سيغلبُ في التراجم. فلا يمكن مثلاً مُقارنة حضور قرطبة أو إشبيلية في هذه التراجم مع إحدى الجهات المتوسطة في غرب الأندلس كيابرة. لكن هذا لا ينفي وجود بعض المراكز في الغرب في بعض الفترات، مُحاكية لهذه الحواضر كلشبونة، يقول الشنتريني(1997: ج3، ص865): «... وكان الوزير الفقيه أبو عبد الله مُحمد بن إبراهيم سويداء قلب ذلك الإقليم و مجلسهُ بالأشبونة مرمى المنثور والمنظوم».

لكن ومن جهة أخرى تجدر الإشارة إلى أن المُترجم كثيرًا ومع ذكره لمسار حياة المُترجَم لهُ يُعرج على مسقط رأسه، ما سمح في كثير الأحيان بذكر جهات غرب الأندلس، وهو ما نُلاحظهُ مثلاً في ترجمة هذيل بن مُحمد بن تاجيت البكري، يقول ابن بشكوال (1989: ج3، ص948): «... من أهل قرطبة وأصلهُ من شنترين...».

أما المادة التي وردت في كُتب التراجم حول جهات الغرب الأندلسي، فهي تختلفُ من حيثُ الثراء، فالبعض يكتفي بذكر الجهة، كالمثال الذي أوردناهُ سابقًا عند ابن بشكوال، أو ترجمة ابن الأبار(1985: ج2، ص318) لسعيد بن عُمر بن حكم الصي يقول: «أصلهُ من طبيرة(Tavira) بغرب الأندلس وبها وُلد»، في حين يتجاوز البعض الآخَر حدود الذكر إلى التعريف بالجهة، و لنا هنا مثال ابن خاقان(دت: ج1، ص139) في ترجمته للمتوكل ابن الأفطس يقول: «و أخبرني (الوزير بن عبدون) أنهُ سايرهُ (المتوكل) إلى شنترين قاصية أرض الإسلام السامية الذُرة والأعلام، التي لا يروعُها صرفٌ، ولا يُفزعُها

طـرفٌ؛ لأنهـا مُتوعـرة المرافـي، ومُعفـرةٌ للراقـي، مُتمكنـةُ الرواسـي والقواعـد، مـن ضفـة نهـر اسـتدار بهـا اسـتدارة القلـب بالصاعـد...».

نُلاحـظُ هُنـا الكـمّ الغزيـر مـن المعلُومـات التـي يُمكـنُ الخـروج بهـا مـن هـذه الترجمـة، وهـذا الكـمّ وإن اختلـف مـن ترجمـة إلـى أُخـرى، فإنـهُ يبقـى مهمًّـا للوقـوف علـى الملامـح العامـة لغـرب الأندلُـس، وفـي مُحاولتنـا الإجابـة عـن إشـكالية مـدى اهتمـام المصـادر العربيـة بهـذه الجهـة.

مُحاولـة سـتقودُنا إلـى النظـر فـي عـدد التراجـم بجهـة الغـرب مُقارنـةً بشـرقه عنـد الشـنتريني، علـى اعتبـار أنـهُ المصـدر الوحيـد مـن نـوع التراجـم التـي اطلعنـا عليهـا، الـذي قسـم كتابـهُ علـى أسـاس الإطـار المكانـي، بمـا أن المقارنـة لا تصـح إلا بيـن الغـرب والشـرق بمـا أنهمـا «أطـراف» الأندلـس.

نجـدُ مـن خـلال كتـاب الشـنتريني «الذخيـرة فـي محاسـن أهـل الجزيـرة» أن هـذا الأخيـر وكمـا يذكُـر فـي مُقدمـة كتابـه قـد ترجـم لمـا يُقـاربُ 46 شـخصية مـن «أهـل الجانـب الغربـي مـن الأندلـس»، فـي حيـن ترجـم لـ 33 شـخصية «مـن أهـل الجانـب الشـرقي مـن الأندلُـس». تبقـى الإشـارة هُنـا إلـى أن ترجمـة «الجانـب الغربـي» تشـمل كذلـك «أهـل حضـرة إشـبيلية»، لذلـك قُمنـا بعمليـة جـرد ثانيـة لشـخصيات هـذه المنطقـة فوقفنـا تقريبًـا علـى 38 ترجمـة ترتبـط بصفـة مُباشـرة أو غيـر مُباشـرة بغـرب الأندلُـس.

مـن خـلال هـذه المُقارنـة يمكـن التأكيـد مـرةً أخـرى علـى اهتمـام كُتـاب التراجـم والإخباريـين عمومًـا بجهـة غـرب الأندلـس، بـل إن اهتمامهـم هنـا قـد تجـاوز الطـرف الثانـي للأندلـس أي الشـرق، وهـو الأمـر الـذي يُمكـنُ تفسـيره بالحجـم المهـم لمنطقـة الغـرب سـواءً علـى الصعيـد السياسـي أو الثقافـي.

3- المصـادر الجُغرافيـة:

لئـن كان عـدد الكتُـب الجُغرافيـة أقـل الكتُـب المصدريـة التـي اطلعنـا عليهـا فـي إعـداد هـذا البحـث، وذلـك نظـرًا للعـدد القليـل مـن هـذه الكتـب ليـس فقـط حـول الأندلـس، بـل حـول العالـم الإسـلامي عمومًـا، فإنهـا كانـت فـي غالـب الأحيـان المصـدر الأكثـر ثـراءً بالمعلومـات، ذلـك أنهـا تقصـدُ موضـوع البحـث أي أن المعلومـات لا تـردُ فـي ثنايـا خبـر سياسـي أو عسـكري أو فـي ترجمـة أديـب أو شـاعر، بـل تـردُ مُسـتقلةً بذاتهـا.

وَرَدَ ذِكْـرُ مناطـق جهـة غـرب الأندلـس فيمـا اطَّلعنـا عليـه مـن مصـادر جُغرافيـة نحـو خمسـين مـرة بيـن تعريـف، وإشـارة، مُقسـمة علـى النحـو الآتـي:

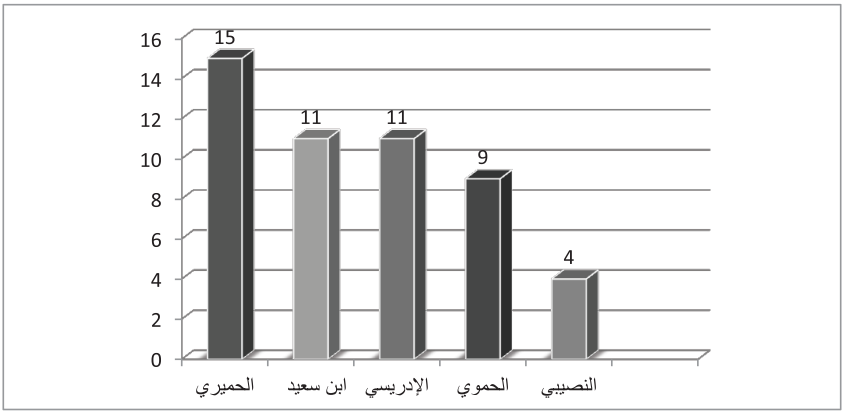

3. المادة المُتعلقة بجهة الغرب الأندلسي في الكتُب الجُغرافية

من هذا الرسم البياني يُمكن أن نُلاحظ أهمية كتاب عبد المُنعم الحُميري (1984): (الروض المعطار في خبر الأقطار)، حيثُ اشتمل على معلُومات غزيرة حول مُدن الأندلُس عمومًا، والجهة الغربية خصوصًا، كتاب اعتمد صاحبهُ في تصنيفه على حروف الهجاء كما فعل ياقوت الحموي (1977) في كتابه (مُعجم البُلدان)، فوجدنا عند الاثنين مثلاً في حرف الشين كُلا من: «شنترين»، و»شلب»، وفي باب الياء: «يابرة».

في حين اعتمد كُل من: الإدريسي، وابن سعيد المغربي، والنُصيبي في ترتيب التعريفات، وكما هي عادة الجُغرافيين عمُومًا في التقسيم المجالي، فها هو مثلاً النصيبي(1992) يقسم كتابهُ (صورة الأرض) إلى مجموعة مناطق تشمل:»ديار العرب، وبحر فارس، والمغرب، والأندلس...». يبدو هذا التقسيم أوضح عند الإدريسي(1863) الذي قسم كتابهُ إلى سبعة أقاليم، كُل إقليم ينقسم بدوره إلى أجزاء، وقد ذكر غرب الأندلس في الجزء الأول من الإقليم الرابع.

بالنسبة للمادة الواردة في المصادر الجُغرافية الخاصة بجهة غرب الأندلُس، فهي غالبًا - وكما يُشير إلى ذلك الحُميري (1984: ص1) - مُراوحة بين التقديم الجُغرافي للمنطقة والتقديم التاريخي، فيقول: «فقد صار هذا الكتاب مُحتويًا على فنين مُختلفين أحدهُما ذكر الأقطار والجهات وما اشتملت عليه من النعوت والصفات، وثانيهما الأخبار والوقائع والمعاني المُختلفة لها الصادرة عن مجتلها».

هذا المنهج اِتَّبعه تقريبًا كُل الجُغرافيين بدرجات مُختلفة، فمثلاً في تعريف «شلب»، نجدُ كُلا من: الإدريسي، و الحموي، و الحميري يتبعون نفس المنهج، بذِكْر الموقع والخصائص الطبيعية، ثم ذِكْر المسافات التي تفصلُها عن بقية المُدُن المُحيطة بها، فإشارة تاريخية تتعلق بأصل أهل شلب باعتبارهم يمنيين، ويتميزون عن بقية أهل الأندلس بتخاطبهم اليومي بالعربية الفُصحى.

اتَّبَع هؤلاء الثلاثة هذا المنهج تقريبًا في كامل كُتُبهم، مع الإشارة إلى أن المادة المذكورة تختلفُ من جهة إلى أُخرى حسب أهمية الجهة أو المدينة وعراقتها التاريخية، فبالنسبة لجهة غرب الأندلُس لاحظنا تفاوتًا مهمًّا بين المناطق، فوجدنا مثلاً المادة المُتعلقة بشلب، وباجة، وشنترين أو أشبونة غزيرةً نسبيًا، في حين أنها محدودة حول قسطلة وطبيرة.

أما بقية المصادر الجُغرافية فنجدُ ذِكْر جهة الغرب الأندلسي عند النُصيبي (1992: ص110) محدودًا نسبيًا، وتقتصر المادة التي خصصها لهذه الجهة على فقرة يُشير فيها للمسافات بين مُدن الغرب يقول: «... و من أخشنبة إلى شلب ستة أيام، و من شلب إلى قصر بني ورداسن(Alcacer do sol) خمسة أيام، وهي أيضًا مدينة حصينة...، و منها إلى المعدن وهو فُم النهر ثلاثة أيام، وهي نفسُها صالحة القدر، ومن فُم النهر إلى لشبونة يوم، ومن لشبونة إلى شنترة (Sintra) يومان، ومن شنترة إلى شنترين يومان، ومن شنترين إلى بيرة أربعة أيام...» ، ثُم يُقدمُ تعريفًا مُجملاً لجهة الغرب يشمل الجوانب الطبيعية، الحضرية والاقتصادية، دُون التفصيل للمُدُن.

رغم محدودية المعلومات من حيثُ الكم عند النُصيبي حول الغرب، فإنها تبقى معلومات مهمة ومُركزة، خاصةً أن كتابهُ الذي يعُود إلى القرن العاشر من المصادر الجُغرافية النادرة حول الأندلُس. كما أن المعلومات التي يُقدمُها هي نتيجة مشاهداته المباشرة، إذ أنهُ زار الأندلُس في أول سنة 337هـ/948م في عهد الأمير أبو مطرف عبد الرحمن بن مُحمد بن مُعاوية (300-350هـ/912-961م).

بالنسبة للمصدر الجُغرافي الأخير، وهو كتاب ابن سعيد المغربي (1995): (المُغرب في حُلى المغرب)، فقد اِتَّبَع صاحبهُ في تقسيمه منهجية خاصة، لا تقوم على تبويب الجهات على أجزاء كما هي العادة، بل على ما يُسميه «الكتُب»، حيثُ خصص في هذا المجال كتابًا خاصًا بغرب الأندلُس، شمل ستة كتُب: ككتاب «»الخُلب في حلى مملكة شلب»، و»كتاب الفردوس في حلى مملكة بطليوس»، وتنقسم هذه الكتُب بدورها إلى مجموعة أخرى من الكتُب، فعلى سبيل المثال ينقسم «كتاب الرياض المصونة في حلى مملكة أشبونة» إلى أربعة كُتُب هي:

- كتاب الغُرة الميمونة في حُلى مدينة أشبونة.

- كتاب حديقة الأحداق في حلة قرية القبذاق.

- كتاب النُكهة العطرة في حلى مدينة شنترة.

- كتاب عُرف النسرين في حلى مدينة شنترين.

تتميز المعلومات الواردة في هذا الكتاب بأنها مزيج بين الكتابة الجُغرافية والتراجم، فبعد أن يُعرف الكاتب بالمنطقة «جُغرافيًا» يُترجم لأعلامها؛ لذلك فهذا الكتاب كما يُمكن إلحاقهُ بالكتب الجُغرافية فيمكن كذلك وضعهُ في خانة كُتب التراجم.

هـذا المـزج بيـن الكتابـة الجُغرافيـة والتراجـم والإخبـار، لـم يقتصـر فقـط علـى ابـن سـعيد بـل هـي صفـة حاضـرة فـي أغلـب المصـادر العربيـة، فـي ظـل ثقافـة تؤمـنُ بتفـوق المعرفـة الموسـوعية، وأن الكتابـة هـي مُراوحـة بيـن عديـد الفنـون، مـن هنـا وجدنـا هـؤلاء المؤلفيـن ورغـم أن مؤلفاتهـم فـي الغالـب نثريـة، يخصصـون أجـزاءً مهمـة للشـعر علـى أسـاس أنـهُ «مِلـح» الكتابـة العربيـة.

4- (الشِّعْرُ) باعتباره مصدرًا تاريخيًّا حول غرب الأندلُس:

لئـن كانـت الدراسـات التاريخيـة تقـوم فـي الغالـب علـى المصـادر النثريـة الكرونولوجيـة أو الجُغرافيـة وكُتـب التراجـم، فـإن اعتمـاد الكتُـب الأدبيـة: نثريـةً كانـت أو شـعرية، يفتـح فـي أحيـان كثيـرة أبـواب جديـدة، تسـمح للباحـث بتعميـق نتائجـه ومُقاربـة الموضـوع المـدروس مـن جهـات مُختلفـة. الأمـر الـذي طمحنـا لـهُ فـي هـذا الجُـزء مـن البحـث المُتعلـق بجهـة غـرب الأندلُـس، وذلـك مـن خـلال تقديـم المقاطـع الشـعرية التـي وردت حـول هـذه المنطقـة، والتـي بلـغ عددهـا 14 قطعـة شـعرية، وجدناهـا مُتناثـرة فـي ثنايـا المصـادر بمُختلـف أنواعهـا، ويمكـن تقسـيم أغـراض هـذه المقاطـع عمومًـا علـى حسـب الأغـراض الشـعرية العربيـة التقليديـة، أي المـدح، والشـوق، والحنيـن، والرثـاء، والهجـاء.

بالنسـبة للمـدح وجدنـا أبـا بكـر المنخـل الشـلبي فـي مجلـس أميـر المؤمنيـن أبـي مُحمـد عبـد المؤمـن عنـد عبـوره مـن المغـرب إلـى الأندلُـس سـنة 555هـ/1160م يمدحـهُ ويدعـوهُ لفتـح غـرب الأندلُـس مـع ذكـر شـوقه لمسـقط رأسـه شـلب، يقـول:

فتحتُم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا فإن نسيم النصر بالفتح قد هبـــا

فإن تبدؤوا بالغرب فالفتحُ واضـحٌ و إن نجوم الدين طالعةٌ غربـــا

.....

كذلك من يلقى الخليفة تلـقهُ بشائرُ تستجلي بها السهل و الرحبـــا

نسينا به أبناءنا و ديارنـــا فهـا نحنُ لا نرتاحُ إذا ذكروا شلبـــا

بـلادٌ قضـي فيهـا الشـبابُ مأربـي وأبقـى لنفسـي مـا بقيـتُ بهـا أربـــا (ابـن صاحـب الصـلاة، 1987: ص94-97).

أما فيما يتعلق بالشوق والحنين فنجد قصيدة المُعتمد الشهيرة حول شلب والتي مطلعُها:

ألا حي أوطاني بشلب أبا بـكر وسلهُن هل عهدُ الوصال كما أدري

وسـلم علـى قصـر الشـراجيب عـن فتـى لـهُ أبـدًا شـوقٌ إلـى ذلـك القصـر(ابن خاقـان، 1989: ج1، ص54-55)

ولعل أهمية هذه القصيدة لا تكمنُ فقط في أن ناظمها هو المُعتمد بن عباد أمير إشبيلية، أشهر ملوك الطوائف، بل كذلك في التعقيب الذي أوردهُ ابن خاقان حول هذه القطعة والذي عرف فيه بإحدى أهم معالم شلب، وهو قصر الشراجيب يقول:

«...و قصر الشراجيب هذا مُتناه في البهاء و الإشراق مُباهٍ لزوراء العراق...».

أهمية عملية التعقيب هذه التي يُلحقُ بها الإخباري أو المُترجم القطعة الشعرية بهدف الإثراء والتوضيح، وجدناها كذلك في قسم الهجاء مع ذكر شنبوس في تعريض المُعتمد بن عباد بابن عمار فيقول:

تبكي عليهُم شنبوسُ بعبـــرةٍ كأتيها المُتدافع التيــار

يا شمس ذاك القصر كيف تخلصت فيه إليك طوارقُ الأقــدارِ

يُعقبُ ابن الأبار(1985: ج2، ص156-157) على هذا المقطع بالتعريف بشنبوس، فيقول: «يُريدُ بشنبوس قرية أوائلة من نواحي شلب».

كما نجدُ في هذا القسم القطعة الشعرية التي تبدو أكثر طرافة، وهي قطعة لأبي عامر الأصيلي يهجو فيها عددًا من مُدن الغرب، قطعة تُعبرُ عن الحالة النفسية المُتأزمة لشاعر لم يجد في هذه الجهة الحظوة التي يرى أنها تليقُ به فيقول:

إلى أين الفرارُ ولا فــرارُ ومن لي بالقرار ولا قــرارُ

أرى الأوغاد يعتمـرون دُورًا و ما لي في بـــلاد الله دارُ

...

أباجةُ ،لا وقاك اللهُ شــرًا فأهلُك أهلُ مفسدةٍ شــــرارُ

أ شلبُ، لا جزاك اللهُ خــيرًا فلا خير لديك و لا خيـــارُ

أ شنتمرية، قُبــحتِ دارًا كؤُوسُ المُخزيات بها تُــدارُ

...

بلادٌ عُريت من كُل خــير فملبسُ أهلها مقتٌ وعـــارُ

...

شتوتُ بها على كُرهٍ فغــطى على جدي و معارفي الغُبـــارُ. (الشنتريني، 1997: ج3، ص861).

حالة نجدها تتكرر عند شاعر آخر هو أبو بكر بن حبيش الذي خرج من باجة فارًا عند

تولي عُمر بن سحنون، يقُول:

إن الفرار غنيمةٌ من باجة فأعمل ذميل الأينق

وأحمد لفراقها الأ عن قلب التق

و إذا رجوت لهمها فرجًا بالعقوق الأبلق

هيهات لا فرج يُرتجى ولئن جرت فيها الخطُوبُ فأقلقِ

أن الغريب إلى الغريب منغص أيودُ لها الرزايا ما بقي

(ابن عذاري، 1983: ص128).

لكن، وإن كانت قطعة أبي عامر الأصيلي تُعبر عن حالة نرجسية لهذا الشاعر، فإن هذه القطعة لأبو بكر بن حبيش وإن «يهجُو» فيها باجة، باعتبار أن الفرار منها «غنيمة»، فإنها تُعبر عن حالة التأزم التي يعيشُها الغرب الأندلسي في ذلك العصر؛ أي: أواخر القرن الثاني عشر ميلادي، والتي أصبح فيها الهدف هو النجاة بالنفس أمام تقدُم النصارى المُتواصل.

حالة التأزم هذه والهزيمة التي أضحى يعيشُها الغرب الأندلُسي أواخر القرن الثاني عشر بداية القرن الثالث عشر ميلادي، عبر عنها كذلك غرض الرثاء، الذي أرخ لسقُوط المُدُن الإسلامية في الأندلُس، فنجدُ مثلاً مُحمد بن إبراهيم يرثي «ضياع» شنترين بقوله:

يا شنترينُ لا أُنادي سامعًا ألقت عليك بلاءها الأقدارُ

و رميت عند دُعائنا بحوادثٍ تدرُ الديارُ وما بها ديارُ

و تبدلت فيك العمارةُ وحشةً و الأمنُ خوفٌ والغنى إقتارُ

و تعبثت بجهاتها أعداؤُها و محا محاسنها البلى والنارُ

حتى أقولُ بنُغصةٍ يا بلدةُ «لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ»

(ابن عذاري، 1983: ص161).

من هنا يمكن القول إن الشعر قد عبَّر عن تطور الوضع السياسي بغرب الأندلس، فكما عبر المدح عن حالة الأمل والشعور بالتفوق، وعبر الشوق والحنين عن حالة الرفاهة التي عاشها مُجتمع الغرب في بعض الفترات، فقد عبر كُل من الهجاء والرثاء عن حالة عدم الاستقرار والاضطراب المُنذر بالتدهور التي أضحى يعيشُها هذا المُجتمع.

II- تقديم المصادر الخاصة بميرتلـة:

لئن كان الإجماع يكاد يحصل تقريبًا من كُل الباحثين حول ندرة المعلومات المُتعلقة بغرب الأندلس في المصادر العربية، فإن هذا الإجماع يزداد حول الأخبار الواردة عن مدينة ميرتلة في هذه المصادر(Macias, 2004).

إذا كُنا قد أثبتنا في القسم الذي خصصناهُ لتقديم المصادر الخاصة بغرب الأندلس أن اهتمام المصادر العربية بهذه الجهة، باعتبارها من الناحية الجُغرافية تعتبر من الأطراف لا يقل عن اهتمامها بالطرف الآخر من الأندلس أي شرقه بل يتجاوزهُ في بعض الأحيان، فإننا سنحاول في هذا القسم البحث في إشكالية مدى اهتمام المصادر العربية بميرتلة. مُتبعين نفس المنهج الذي اِتَّبَعناهُ سابقًا أي نوعية المصادر التي حضرت فيها ميرتلة، حجم تواترها في هذه المصادر على مر الحضور الإسلامي في الأندلس وطبيعة الأخبار الواردة حولها ومدى ثرائها.

1- ميرتلة في المصادر الإخبارية:

كما أشرنا سابقًا فإن بوصلة الإخباري مُعدلة في الغالب على الخبر السياسي الذي يكون بدرجة أولى في المركز، ومن بعدها الأطراف، ويحضر بدرجات قليلة ومتفاوتة في مناطق «المستوى الثالث» أي المُدن الصغرى والبلدات والحصون...، والتي يكون ذكرُها في الغالب مُرتبطًا بحدث عسكري، وهو الأمر الذي ميز المعلومات الإخبارية الواردة حول ميرتلة على مر العصور تقريبًا.

لئن غاب الحديث عن ميرتلة في فترة الفتح أو التوطين، فإننا سنجدُها تُذكرُ أول مرة في المصادر الإخبارية مع دولة بني أُمية في حديث ابن عذاري عن جُملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله بن أُمية، والذين يذكرُ منهم عبد الملك بن أبي الجواد الثائر بباجة و»مارتلة» سنة 287هـ/ 900م.

ثُم تصمتُ هذه المصادر عن ذكر ميرتلة تقريباً طيلة قرنين، أي من سنة 287هـ/900م إلى سنة 486هـ/1093م، بمعنى إلى نهاية عصر الطوائف الأول وبداية دولة المُرابطين بالأندلُس، حيثُ يذكر المراكشي خبر تسليم الراضي بالله بن المُعتمد حصن ميرتلة للمُرابطين.

بعد ذلك تعود المصادر الإخبارية لتصمت عن ذكر ميرتلة تقريبًا طيلة العصر المُرابطي، حيثُ سنجدُ بعد ذلك في عصر الطوائف الثاني(510-546هـ/1116-1151م) والعهد الموحدي تطورًا مهماً في المعلومات المُتعلقة بهذه الأخيرة، حيث قد اقترن هذا التطور بتتالي الأحداث السياسية والعسكرية بجهة غرب الأندلس عمومًا وميرتلة خصوصًا.

فأما في عهد الطوائف الثاني فقد ذُكرت ميرتلة نحو ثمان مرات، واقترنت كُل الأخبار التي

جاءت في هذا السياق تقريبًا بثورة المُريدين بزعامة أحمد بن قسي سنة 847هـ/1144م، فقد ذكر خبر هذه الثورة كُل من المراكشي في «مُعجبه» ولسان الدين بن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام» في إطار حديثه عن الثوار بغرب الأندلُس مُفصلًا الحديث عنها، وهو الأمر الذي سمح بتقديم معلومات مهمة، تجعلُنا نقول بأنهُ أهم مصدر إخباري حول ميرتلة.

في نفس السياق، ومع بداية عهد الموحدين بالأندلُس نجدُ خبرًا عن ميرتلة في «البيان المُغرب» لابن عذاري في إطار الحديث عن دخول ابن قسي في طاعة الموحدين، وفتحهم لجهة ميرتلة والغرب الأندلُسي، فتح يبدو أنهُ لم يدُم طويلاً إذ وجدنا خبرًا آخرًا عن ميرتلة في نفس هذا المصدر، أي: «البيان المُغرب» في سياق الحديث عن تمكُن الموحدين من إعادة السيطرة عليها على يد تاشفين اللمتوني.

بعد ذلك، وتقريبًا لمُدة ست عشرة سنة تسكُت المصادر الإخبارية عن ذكر ميرتلة؛ أي من سنة 552هـ/1157م تاريخ قمع ثورة تاشفين اللمتوني إلى سنة 568هـ/1172م، وهو تاريخ سقوط مدينة باجة أول مرة في يد النصارى، وفرار حاكمها عُمر بن سحنون إلى «مرتلة»، فرار يبدو أنهُ لن يكوُن الأخير بل سيليه فرار أهل باجة مرةً أُخرى إلى ميرتلة في صيف 574هـ/جون1178م.

إذن إجمالاً، ورد ذكر ميرتلة في المصادر الإخبارية ثماني عشرة مرة مُقسمة زمنيًا على النحو الآتي:

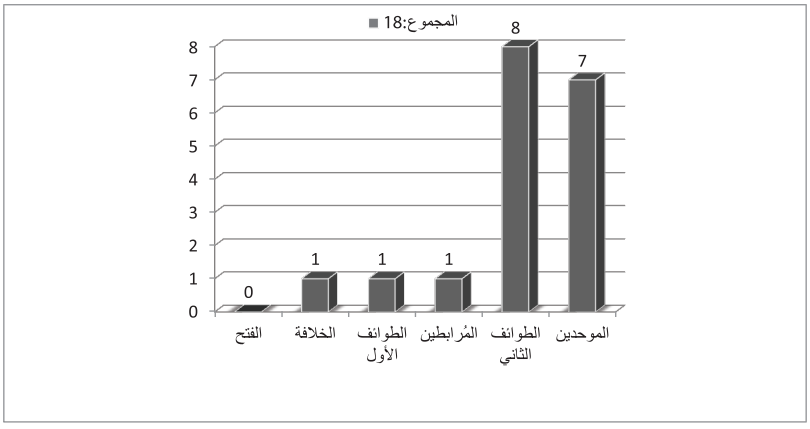

4. المادة الواردة حول ميرتلة في المصادر الإخبارية

تقسيم يتوافق مع النتائج التي توصلنا إليها سابقًا في تقديم المصادر المُتعلقة بغرب الأندلُس، وهي تطور دور الأطراف والمُدن من المُستوى الثالث في عهد الطوائف. أمر وإن وجدناهُ سابقًا في عهد الطوائف الأول، فإنهُ في حالة ميرتلة يظهر في عهد الطوائف

الثاني، وهو ما فسرناهُ على أساس فقدان المراكز في هذه الفترات لهيمنتها على المجال، ومن ثَمَّ احتكارها للخبر.

إذا كان تطور الأخبار حول ميرتلة في عصر الطوائف الثاني مُرتبطاً بتطور حجمها السياسي، فإن حضورها المُكثف نسبيًا في عصر الموحدين، يُمكنُ تفسيرهُ بتطور مكانة الغرب في المجال الأندلُسي، وكذلك على أساس التحولات الإدارية التي عرفتها المنطقة، إذ فقدت بعض المراكز الإقليمية أهميتها أمام صعُود بعض المُدن من المستوى الثالث، فمثلاً بعد سقوط باجة نهائيًا في يد ألفونسو هنريكز سنة 1178م، تطور حجم ميرتلة الإداري، ومن ثَمَّ كثافة حضورها في المصادر.

أما عن طبيعة الأخبار الواردة حول ميرتلة في المصادر الإخبارية الكرونولجية، فهي تقريبًا كُلها - وكعادة الإخباريين - مُرتبطة بأحداث سياسية وخصوصًا عسكرية، تؤكد الأهمية الاستراتيجية للمدينة والتي ستؤكدها فيما بعد المصادر الجغرافية، كقول الإدريسي (1863: ص179): «... حصن مارتلة المشهور بالمنعة والحصانة»، أو ياقوت الحموي(1977: ج5، ص242) في تعريفه للمدينة: «...حصن من حصون باجة، وهو أحمى حُصون المغرب، وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنا».

مع الإشارة إلى وجود خَبَرَين عرضيين في هذه المصادر ذوي طابع جُغرافي:

ورد الخبر الأول عند المراكشي (1994: ص301) في إطار الحديث عن المسافات بين إشبيلية و شلب، و البلدات الواقعة بينها يقول: «ومن إشبيلية إلى مدينة شلب التي على ساحل البحر الأعظم، خمس مراحل، و بين ذالك بليدات صغيرة، كمدينة لبلة وحصن مرتلة ومدينة طبيرة، ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنتمرية، هذه البلاد كُلها فيما بين شلب وإشبيلية من مغرب الأندلُس».

أما الخبر الثاني فقد ورد في إطار حديث ابن صاحب الصلاة (1994: ص402) عن غزوة أبي يعقوب الأولى في الأندلُس سنة 567هـ/1172م، يقول: «...حتى وصل الموضع المعروف بالغدر يوم السبت المذكور، وهذا الموضع هو رأس وادي آنة الجاري إلى بطليوس وإلى ميرتلة ونظر باجة».

2 ـ كُتب التراجم:

حضرت ميرتلة في كُتب التراجم في الغالب في إطار الترجمة لأبي عُمران موسى المارتلي، سواءً عند ابن سعيد الأندلُسي (1998) في كتابه الغصون اليانعة، أو في مُقتضب ابن الأبار(د.ت: ص92) يقول: « أبو عُمران موسى بن حسين بن عمران الزاهد، يُعرفُ بالميرتلي وأصلهُ من ثغر ميرتلة».

إذا كانت غالبية الدراسات قد أشارت لأبي عُمران المارتلي مُؤكدةً على أنهُ الشخصية

الوحيدة بالإضافة إلى مُحمد بن فندلة التي ورد ذكرُها في المصادر وأصلُها من ميرتلة، فإنهُ ومن خلال عملية البحث التي قُمنا بها في هذه المصادر تمكنّا من الوقوف على ترجمتين جديدتين، الأُولى لأبي عبد الله بن ملك الميرتلي، والذي ورد ذكرهُ في ترجمة أحمد بن مُحمد بن عبد الرحمن بن خاطب، و في ترجمة إبراهيم بن مُحمد بن أحمد الأصبحي.

أما الترجمة الثانية فهي لعُمر بن فرج الأنصاري المارتلي، يُكنى أبا حاتم، وقد ترجم لهُ كُل من مُحمد بن عبد الملك المراكشي (1965) في كتابه (السفر الخامس)، و ابن الأبار(1919) في كتابه: (التكملة لكتاب الصلة).

لئن ارتبط ذكر ميرتلة هُنا بذكر شخصيات أصيلة هذه المدينة، فإن ذكرها في كُتب التراجم لم يقتصر فقط على هؤلاء، بل وجدناها كذلك حاضرة في ترجمة شخصيات أُخرى أدّتْ دورًا مهمًا في تاريخ الغرب عمومًا و ميرتلة خصوصًا كأحمد بن قسي، مُحمد سيداري ومُحمد بن عُمر بن المُنذر وأحمد بن عُثمان بن يحي الكلبي عُرف بابن القابلة، والذين ترجم لهم كُل من ابن الأبار وابن بشكوال(1989).

أما عن حضور ميرتلة من عصر إلى آخَر، فنُلاحظ غياب أي ذكر لها في كُتب التراجم في فترة الفتح وفترة الخلافة، فهي لا تحظر إلا في إطار الصراع بين ملوك الطوائف، أي الحديث عن إمارة بنو طيفور بميرتلة(424-435هـ/1033-1044م)، ثُم تغيب طيلة عهد المُرابطين، لتعود بعد ذلك بقوة مع عصر الطوائف الثاني بثمان إشارات، وفي إطار ترجمة خمس شخصيات.

تواصل هذا الحضور بنفس الدرجة تقريبًا في عهد الموحدين بحضورها في أربعة تراجم، مع الإشارة إلى أن هذه التراجم «الموحدية» هي تراجم تعود لشخصيات فكرية أدبية تعكس رُبما الحركة الفكرية التي عرفتها ميرتلة في ذلك العصر، على عكس تراجم العصر الطائفي التي جاءت لشخصيات سياسية تعكس بدورها التطورات السياسية المهمة التي عرفتها المنطقة.

مما سبق يمكن التأكيد على أهمية كُتب التراجم في دراسة تاريخ ميرتلة، فبالإضافة إلى المعلومات السياسية التي وجدناها حول المنطقة في تراجم عدد مهم من الشخصيات، أو بعض اللمحات الجُغرافية كتلك الإشارة عند ابن سعيد(1998: ص136) في ترجمته لأبي عُمران المارتلي يقول: «...إنهُ (أبو عمران) من مارتلة، المعقل المشهور على وادي آنة من عمل باجة من الأندلُس...»، فإن هذه الكُتُب تكاد تكون الوحيدة من خلال ترجمتها لبعض الشخصيات الأدبية والفكرية التي تكشف لنا عن جوانب من الحياة الفكرية بميرتلة خصوصًا في العهد الموحدي.

3- المصادر الجُغرافية حول ميرتلة:

لئن أنارت لنا المصادر الإخبارية خصوصًا طريق البحث في التاريخ السياسي لميرتلة، وفتحت لنا كُتب التراجم باب بحث جديد يتعلق بالحياة الفكرية بهذه المدينة في العهد الموحدي، فإن المصادر الجُغرافية ستُساعدُنا على التعرُف على الخصائص الطبيعية لهذه المدينة وخصوصًا حجمها ودورها في مجالها.

وقع ذكر ميرتلة في أربعة مصادر جغرافية من جُملة خمسة المصادر التي اعتمدناها في هذا البحث، و قد وردت إما في إطار تعريف مُستقل وهو ما نجدهُ في «مُعجم البُلدان» لياقوت الحموي، و «المُغرب في حُلى المغرب» لابن سعيد (1995: ج1، ص402) التي ذكرها في إطار «كتاب الديباجة في حُلى مملكة باجة»، يقول: «... و ينقسم كتابها (باجة) إلى كتابين: كتاب الكواكب الوهاجة في حلى مدينة باجة، و كتاب الأقراط المُكللة في حلى حصن ميرتلة». كذلك في كتاب «الروض المعطار» للحميري الذي خصص لها تعريفين: الأول تحت اسم «مارتلة» و الثاني «ميرتلة»، أو في إطار ذكر الأقاليم والمسافات بين المناطق كما هو الشأن عند الإدريسي(1863: ص180)، يقول: «... ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل، وكذلك من شلب إلى حصن ميرتلة أربعة أيام، ومن مارتلة إلى حصن ولبة مرحلتان خفيفتان»، أو الحديث عن وادي «يانة» كذلك في مُناسبتين عند الإدريسي.

أما بالنسبة لحجم حضور ميرتلة في هذه المصادر الجُغرافية، فيُمكن القول إن هذه الأخيرة قد وجدناها في إحدى عشرة إشارة: خمس منها تعريفات، وستة مُجرد ذكر.

أما عن أهمية هذه المعلومات، فهي لا تختلف كثيرًا عن ما نجدهُ عمومًا عند الجُغرافيين، أي ذكر: موقع المدينة، ثُم المراحل التي تفصلُها عن بعض المُدُن، ولمحة تاريخية عنها، وفي الأخير إشارة إلى بعض أعلامها، مع التأكيد على أهمية هذه الأخيرة التي وجدناها طاغية على بقية العناصر عند كُل من الحُميري وابن سعيد في تعريفهما بأبي عُمران المارتلي، أو عند ياقُوت الحموي في ترجمته لابن فندلة.

الخاتمة:

في محاولتنا الإجابة عن مدى اهتمام المصادر العربية بالغرب الأندلسي يمكن القول إن هذه المصادر لم تولِ أهمية كبيرة لهذه الجهة في مدة الفتح؛ نظرًا لأنها لم تجد عناية كبيرة من لدن الفاتحين: سواءً من لدن طارق بن زياد أو موسى بن نصير الذي كلف ابنه عبد العزيز بفتح هذه المنطقة. أما في مدة الخلافة وإن ازداد الاهتمام بالغرب للعدد المهم من الثورات التي قامت به، فإن محور الاهتمام كان في الغالب مركز السلطة أي قرطبة. هذا المركز سيتشتت مع عصر ملوك الطوائف، و هو ما فسر زيادة المادة المُتعلقة بالغرب، مادة ستعرف تراجُعًا ملحوظاً مع عصر المُرابطين، لتبلُغ أقصاها مع العصر الموحدي الذي يُمكنُ اعتبارهُ المدة الأهم للغرب الأندلسي في المصادر؛ نظرًا للكم الهائل من الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها المنطقة في ذلك العصر.

كذلك، وبناءً على كل ما تقدم يُمكن الوقوف على أهمية حضور الغرب الأندلسي في المصادر العربية بجميع أنواعها: سواءً كانت إخبارية كرونولوجية، أو كُتب تراجم أو جُغرافية، وحتى شعرية. لكن رغم هذه الأهمية فإنهُ يجب الإشارة إلى وجود العديد من الفجوات التاريخية في هذه المصادر، وهو الأمر الذي يجعلنا لا نُغالي كثيرًا في النتائج التي تعدُنا بها هذه المصادر.

أما بالنسبة لحضور مدينة ميرتلة في المصادر العربية، وأخذًا بالاعتبار بمنهجية الإخباريين وكُتاب التراجم والجُغرافيين، ومُقارنةً بحجم ميرتلة في مجالها، بالنظر إلى أنها تُصنف من مُدن «المُستوى الثالث»، فيُمكن التأكيد على أهمية حضُورها في المصادر العربية، حضور تفاوت من عصر إلى آخر وجاء على هذا النحو:

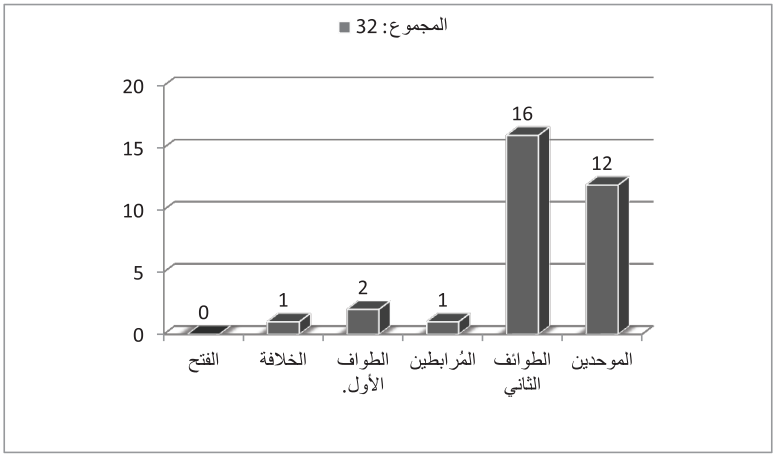

5. المادة المُتعلقة بميرتلة في المصادر الإخبارية (كرونولوجية و تراجم)

أمـا عـن طبيعـة الأخبـار الـواردة حـول ميرتلـة فيُمكـن تقسـيمُها إلـى ثلاثـة أقسـام: أخبـار سياسـية عسـكرية، أخبـار جُغرافيـة، أخبـار فكريـة أدبيـة، مـع الإشـارة إلـى أن الأخبار السياسـية العسـكرية هـي التـي كانـت طاغيـة فـي غالـب الأحيـان، تلتهـا الأخبـار الجُغرافيـة، ثُـم الأخبـار الفكريـة الأدبيـة.

لئـن كان مُنطلـق هـذه الدراسـة هـو مُحاولـة الإجابـة عـن مـا يطرحـهُ حضـور الغـرب الأندلسـي ومدينـة ميرتلـة فـي المصـادر العربيـة مـن إشـكاليات، مُتعلقـة خصوصًـا برصـد هـذا الحضـور، ثـم تقييـم حجمـه، فتفسـيره مـن خـلال الوقـوف علـى منهجيـة الإخباريين، فإنهـا تُقيـم الدليـل كذلـك علـى إمكانيـة تطويـر الدراسـات العربيـة حـول البرتغـال الإسـلامية، هـذه الدراسـات التـي تبقـى إلـى اليـوم محـدودة جـدًا رغـم تطـور الأبحـاث الأثريـة والمناهـج التاريخيـة التجزئيـة و الكمية.

قائمة المصادر والمراجع:

Almeida, F. (1976). As ruínas da chamada ponte romana de Mértola (Portugal). Madrider Mitteilungen (17).

Barcelo, C. y. (1987). Inscripciones árabes portuguesas: situación actual. Qantara , 8/1-2.

Candon, M. (2001). A necropole islamica de Mértola, Museu de Mértola, (Arte Islamica). Mértola: Campo Arqueologico de Mértola.

Fernandez Gomez, F. (1987). La basílica y necrópolis paleocristiana de Gerena (Seviila). Noticiario Arqueológico Hispánico (29).

Gomez Martinez, S. (2004). La cerámica islámica de Mértola producción y comercio. Madrid: Universidad Complutense de Madrid.

Macias, S. (2005). La küra de Beja et le territoire de Mértola entre l'antiquité tardive et la reconquête chrétienne. Lyon: Université Lumière-Lyon.2.

Macias, S. (2005). Société et vie matérielle à l'époque almohade dans le Gharb al-andalus. Averroès et l'averroïsme (pp. 29-38). Lyon: Université de Lyon.

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي. (1985). الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف.

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي. (1919). التكملة لكتاب الصلة، الجزائر، المطبعة الشرفية.

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي. (دت). المقتضب من كتاب تحفة القادم. إبراهيم الأبياري وطه حسين (تحقيق)، مصر، وزارة التربية والتعليم.

ابن الخطيب، لسان الدين. (1956). أعمال الأعلام. ليفي بروفنسال (تحقيق وتعليق)، بيروت، دار المكشوف.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. (1997). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. إحسان عباس (تحقيق)، بيروت، دار الثقافة.

ابـن بشـكوال، عبـد الملـك. (1989). الصـلـة. إبراهيـم الأبيـاري (تحقيـق). القاهـرة، دار الكتـاب المصـري.

ابـن خاقـان، أبـو نصـر الفتـح بـن محمـد بـن عبـد الله القبسـي الإشـبيلي. (1989). قلائـد العقبـان ومحاسـن الأعيـان. حسـين يوسـف خريـوش (تحقيـق)، الأردن، دار المنار.

ابـن سـعيد المغربـي، علـي بـن موسـى اليحصبـي. (1995). المُغـرب فـي حُلـى المغـرب. شـوقي ضيـف (تحقيـق)، القاهـرة، در المعـارف.

ابـن سـعيد، أبـو الحسـن علـي بـن موسـى الأندلسـي. (1998). الغصـون اليانعـة فـي محاسـن شـعراء المائـة السـابعة. إبراهيـم الأبيـاري (تحقيـق)، مصـر، دار المعـارف.

ابـن صاحـب الصـلاة، أبـو مـروان عبـد الملـك. (1987). المـن بالإمامـة. عبـد الهـادي التازي(تحقيـق)، بيـروت، دار الغـرب الإسـلامي.

ابـن عبـد الملـك المراكشـي، أبـو عبـد الله محمـد. (1965). السـفر الخامـس مـن كتـاب الذيـل والتكملـة لكتابـي الموصـول و الصلـة. إحسـان عبـاس (تحقيـق)، لبنـان، دار الثقافـة.

ابـن عـذاري المراكشـي، أبـو العبـاس أحمـد بـن محمـد. (1983). البيـان المغـرب فـي أخبـار الأندلـس و المغـرب. ج.س.كـولان و إ. ليفـي برفنسـال وإحسـان عبـاس (تحقيـق)، بيـروت، دار الثقافـة.

الإدريسـي، أبـو عبـد الله محمـد بـن إدريـس الحسـني. (1863). نزهـة المشـتاق فـي اختـراق الآفـاق، لايـدن، مطبعـة بريـل.

البيـذق، أبـو بكـر بـن علـي الصنهاجـي. (1971). أخبـار المهـدي بـن تومـرت وبدايـة دولـة الموحديـن. عبـد الوهـاب بـن منصـور (تقديـم)، الربـاط، دار المنصـور للطباعـة والوراقـة.

الحميـري، محمـد بـن عبـد المنعـم. (1984) الـروض المعطـار فـي خبـر الأقطـار. إحسـان عبـاس (تحقيـق)، لبنـان، مكتبـة لبنـان.

عبـد الواحـد المراكشـي، محيـي الديـن أبـو محمـد. (1994). المعجـب فـي تلخيـص أخبـار المغـرب. محمـد زينهـم محمـد عـزب (تحقيـق)، القاهـرة، دار الفرجانـي للنشـر والتوزيـع.

النصيبـي، أبـي القاسـم بـن حوقـل. (1992). صـورة الأرض، بيـروت، منشـورات مكتبـة الحيـاة.

Gharb Al-Andalus or Islamic Portugal and the city of Mértola in Arab Sources

Houssem Eddine B.S. Chachia

Faculty of Letters, Art and Humanities - Manouba University
Manouba - Tunisia

Abstract

This study investigates the presence of Gharb Al-Andalus and the city of Mértola in Arabic sources in terms of the nature of the information, and methods of historians in their attempts to monitor and understand the evolution of this presence.

Keywords: Arab sources, Gharb Al-Andalus, Islamic Portugal, Mértola